

- أخبار الزّالوجة المحترمة... بل آخر أخبارها تنتقل في الشركة من الطابق السفلي إلى الطابق العشرين.. أين سماءك ونجومك وأقمارك، تصل إلينا أخبارها كما تصل أخبار الصباح... انقضت لحظات رهيبه كأنها آخر لحظات عمره... وهو في قبضة يد مبروك الفولاذية... اليوم أطلع لك لسانك ولا أخرج لك روحك وذلك كنتيبه يصعد لك من الطابق السابع أو كإنداز.. على كل اختر أي كلمة شئت...

في النهاية، ضغط الموظف على زر الانطلاق، بعد أن خلى سبيل المدير... وهو يكشر في وجهه.
يتحرك المصعد من جديد، بتأن في أول الأمر، بعد رجات وهزات إذ لم يألف بدوره التوقف المفاجئ بين الطوابق ثم ينساب من جديد في شبه عتمة وموسيقى هامسة...
عندما يصل إلى الطابق العشرين يرن جرس نحيف الصوت يفتح إثره الباب شيئاً فشيئاً على صالون فسيح أنيق... ولوحات زيتية معلقة على جدران رمادية... تكسوه موكات من النوع الرفيع، لونها أزرق سماوي...
- تفضل سيدي المدير...
ويفسح له بالخروج...

اختفاء

مصطفى الكيلاني

من الثقب ينحصر فضاء الغرفة في إطار فولاذي.

هناك في الركن المقابل يجلس بجنته المتعب وأمامه طاولة عليها كأس وقارورة وصحن كأن فيهِ حبات زيتون وقطع جبن صغيرة وهيكل سمكة مشوية يتناثر قريباً منه فتات لحم.. الوجه يصفى مُحْتَجِب بين الجدار المقابل وبين الظلال المتكدسة حدو النافذة المُعْلَقَة...

تحت الطاولة شَبِخَ قِطْعة سوداء يَمْتَطِطُ وَالذَّنْبُ إِلَى أَعْلَى تَمُرُ مِنْ بَيْنِ رجليه وتعمد التمشيح بهما ثم تهتم بالنهوض مستندةً بساقها الأماميتين إلى ركبتيه فيدفعها بيده إلى الأسفل.. كأنها تموء وتتراخي في انكسار ثم تختفي قريباً منه كي تُعيد الكرة بعد حين..

ها أنت الآن، حضرتك، سجين في صندوق كأنك في تابوت أموات، معلق في الهواء بين الأرض والسماء. وقعت كفار في مصيدة.. بكل صفة، حضرتك تشبه اليربوع من ناحية أنفك وشاربك وغياب جبهتك وتواء أنيابك... ويالها من أنياب... إناك تعلم، دون شك، ماذا يصنع باليرابيع...

ثم كشر له وواصل وعيناه في عينيه:

- الحرياء، عندما يقتضي الحال، تغير ألوانها لتختفي عندما يداهمها الخطر... وأنت، إلى الآن، في بحبوحة من العيش، تتقلب كما تشاء، وتقلب من حيوان ضار إلى حيوان فتاك، ولا تهتمك البقية الباقية من عباد الله... يا لك من ثعبان تحسن الانسياب في سكون.. وتتقن الحسابات و«التكبيبات»... كلنا نعلم بالمرابيح وما فوق المرابيح وما تحتها، وعمليات التغطية، وما يمر مَر الكرام في الحسابات الجارية والمجمدة عندما توقع على ما توقع من العقود، وتبرم ما تبرم من الصفقات... ثم سفرك للخارج ليوم أو يومين لأسباب لا نجهلها، أهمها الكشف عن حسابات بالدولار والفرنك الفرنسي والسويسري والبلجيكي وعمّا قريب يدخل اليان الياباني في حيز مداراتك... واللقاءات مع الحبيبات... المرتب الشهري لا يساوي ثمن زجاجة وسكي تطلبها أثناء سهراتك في نزل من التزل... وتابع وهو يقترب منه أكثر فأكثر:

- نحن نعلم بكلّ خفاياك... إناك أكلت الدنيا وتسخرت بها... ولم تبق منها شيئاً لخلق الله. يا لك من حيوان!! ومع ذلك تحسدني على ربطة العنق التي حول رقبتني. أما ربطة عنقك هذه المستوردة - ويستولي على ربطة عنق المدير المنكمش في قاع المصعد - فأنا أريد أن أداعبها.. (يحد أصابعه ويعبث بها)... ربطة عنقك هذه المزدهية الألوان هي آخر صبيحة هذه الأيام في أوروبا... أداعبها إلى... إلى... وأنت تعرف النهاية... (ويضغط بجمعه عليه ضغطاً تنزعج له عيناه)... ها.. ها.. أتأمل فيك جيداً اليوم.. وعن قرب، لأول مرة.. أدنو منك... وأكاد أبرك عليك. لا تتحرك.. ها.. ولا تفتح فمك.. وماذا تقول إن فتحت فمك... ها...

ويواصل متهمكاً:

- قل لي... سمعت أنك تجر رأسك في روما، ما شاء الله... ما شاء الله (يضغط عليه أكثر) كان عليك أن تفرقه في إسبانيا... كما تفرق الكلاب... وتعلم أظافرك فتاة ترتدي الحبيب حد الفخذين وهي بين يديك.. لا تغتر، إنها مومس، تعرت لعشرات من قبلك، وستعزى لعشرات من بعدك... مومس السيدا، من النوع الرفيع.. من آخر طراز هذا الزمان... ما أجمل الهدايا التي تعود بها.

ويتابع وهو منكب عليه، وعيناه في عينيه، ورأسه يكاد يصطدم برأسه:

مدينة الأسوار العالية

التابعي الأخضر

قال الدليل الذي يتقدمنا: لا ترفعوا رؤوسكم، إحنوا الظهور، فالصعود من هنا وتسلق الصخور خطراً، وفي البداية تنفسوا جيداً! املاًوا صدوركم بالهواء فقد تحتاجون إليه، ففي الأعالي يعسر جليته نقياً. وحتى السعال لو بادركم فاكتموه عن أنفسكم، ومن تملكه منكم فقد خطاه وثوى حيث هو.

كنا ثلثة من بني الإنسان مختلفي الأعمار، وربما الطبايع. غرض واحد جمعنا: هو اقتحام المدينة ذات الأسوار العالية، وكل في نفسه أمل وفي مخيلته أحلام. ففرضي أنا مثلاً أن أغسل أيام عمري وأنشرها على أسوار المدينة، فتكتسب جدتها وأندوق طعم الزمن وهو يتوقف أمامي دون حراك وكان قبلها يمؤ سريعاً حتى لا أتبين لونه.

«اقتربنا من النقطة التي لو جاوزناها لأميئاً طريق الصعود»، قال الدليل ذلك، وأردف بعد أن صعّد بصره في وجوه الجميع:

- تخلصوا من بعض أمتعتكم. ابحثوا في جيوبكم عما يثقلكم. انفضوا التراب عن أرجلكم.

وانتني لأنظر من تحت رجلي فأرى أنّ الأرض ابتعدت وكأنتي إلى السماء أقرب. وكدت أصاب بدوار.

وفي المحطة استراحوا، تمددوا على الأرض، باحوا بأطوالهم وقلت وأنا واقف: لأسأل نفسي حتى الآن عن...؟

وقاطعني صوت الدليل: ألم تتعهد بأن لا تتحدث إلا متى بلغنا الأعالي وامتلكنا حرية التنفس، فتقدر وقتها على الكلام؟ كل الكلام وقتها يكون مباحاً.

وسأل شاب وكأنه يحدث نفسه:

- أنا لا أحمل قضية. فما رحلتي إلا من أجل أن أرغم نفسي.

وأشار الدليل إلى المتكلم قائلاً:

- انتهت رحلتك أنت. قلت ما لا ينبغي قوله في موقع لا يُسمح فيه بالكلام. يُق أنك أصبحت معاقاً: فلا أنت بقيت حيث أنت، ولا واصلت الرحلة. ولقد رأيت في بؤبؤي عينيك أشباح أناس آخرين. لقد أسقطت أمتعتك ونسيت ما تساقط من طبائعك.

وقلت دون وعي أناصر الرفيق الشاب:

- لقد كنت في أول الرحلة دليلاً. فماذا أصابك حتى تصبح أمراً؟

هل كنت تصيد القوافل لتصبح عليها حاكماً؟

لسان الشمعة يلفظ دخاناً رقيقاً ينعكس على القارورة نصف الفارعة خيطاً يلتوي ويسبح على الزجاج.

الزجاج مَجْرّة نائية تتراعى نجومها حبات رمل متناثرة، ولسان الشمعة براكين، والظلال يحار ظلمة خلّفها بخار. قد لا يُفكر الجالس هناك في شيء مُحدّد. جثته المُثعّبة في غيبوبة الموت نهر عظيم ينحدر من قمم الجبال، ويمضي السيل كأنه نريف كؤن يسقط في هوة بلا قرار.. تنهد المدنّ الأحلام الذكريات وجوه الأطفال الصبايا الشاعث الأيأم الأعوام الدهور الظلال الشموس الزغاريذ الأعراس المأمّ الدول الحكومات الكواكب المجزآت البحار الفصول..

كأنه يرفع إلى السقف رأسه أو يهّم بحركة ما يطرد بها مخاوف قديمة تستيقظ فيه بين سجن الغرفة والفجر الذي سيأتي.. «هل يصب كأساً أخرى يُوقف بها زحف الظلال؟!» يده المرتعشة ترتفع ثم تنخفض وتنسكب من بين الأصابع قطرات أو كذلك بدأ المشهد للرائي من خلال الثقب..

الغرفة مستطيلة لا يُرى منها في الإطار الفولاذي سوى الجالس مُدبراً وطاولية وقفا كرسي وقارورة وصحن وحبات زيتون وقطع جبن وهيكل سمكة ومرمدة مملوءة بأعقاب سجائر ونافاذة مُغلقة تغمر شقوقها بين الحين والآخر موجة ضوء. وترتعش الستارة. لعله المطر يركب العاصفة ويلاحق الرعد، والسماء بخر ظلمة وبروق والذاكرة شارع قفر إلا من قطط المزابل ومومسات آخر الليل والسكرارى والوجل وارتعاشة الماء على الإسفلت تحت أضواء الفوانيس الشاحبة.

الثقب هو ذاته. حينما نظر إلى الدّاخل في آخر مزة أبصر طاولة عليها صحن كأن به حبات زيتون جافة وهيكل سمكة، وعلى الحاقّة قارورة فارغة ومرمدة مملوءة بأعقاب سجائر وأعواد ثقاب مُستعملة، وفي الجدار المقابل نافذة مُغلقة تحوّقت ستارها وعلاها الغبار وخيوط العناكب، وفي أسفل الطاولة بين الثقب وتلك الأشياء كرسيّ تهزمت أخشابه وتكدّست قريباً من هيكل قطعة عظمي وبقايا شموع مبيّنة. ثقب الباب علاه الصّدأ والمكان تغيّر وذلك الرجل اختفى ولن يعود.

صائفة ١٩٩٣